مصارع الخلفاء

مشاهد رائعة نقلها عن التاريخ

ك . ك

ويا دهر لحاك الله ما هنأت فرحانك

« أبو العلاء »

مصرع عثمان (١)

(كنت احد حملة عثمان ، حين قتل ، حملناه على باب ، وان رأسه لتقرع الباب لاسراعنا به ، وان بنا من الخوف لأمرا عظيما ، حتى واريناه فى قبره فى (حش كوكب)

تمهيد

ما ذكرت مصرع عثمان الا ذكرت الهول ، وانتابني غم شديد ، على هذه الضحية التي قادها الى الحتف وأوردها موارد التلف ، بطانة السوء ورواد المغانم .

---

(١) ثالث الخلفاء الراشدين ، ولي الخلافة سنة ٢٤ وقتل سنة ٣٥ هـ وعمره حينئذ ٨٢ سنة ، وفتحت في عهده برقة وطرابلس الغرب والنوبه وجزيرة قبرس ، وبلاد جنوبي التركستان ولقد بويع لعشر بقين من المحرم ، بعد مقتل عمر بثلاث ليال قالوا :

« ولما بايعه اهل الشورى ، خرج وهو أشدهم كآبة ، فاتي منبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخطب الناس ؛ فحمد الله وصلى على النبي وقال .

وطلاب المآرب الدانية الحقيرة ! هذا هو المقتول ظلما وعدوانا ، المسفوك دمه بسبب حماقة جماعة من المخرقين لا همّ لهم الا قضاء لبانات أو اشفاء حزازات

***

لقد جبل الناس على ظلم من لا يظلمهم ، والثورة على من يحدب عليهم ولا يرجو الا الخير

وهم لمن لان فم جانبه ألذع من حيات أنياب السفا

ولقد كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ يعرف في الناس هذا الخلق ، ويعلم من طباعهم كل ما يعلمه الحصيف الالمعي ، ولكنه يأبى الا التمادي في حلمه ، والركون الى طبعه ، وهكذا

يتحارب الطبع الذي مزجت به مهج الانام وعقلهم فيغلبه

الا ترى الى حكايته ، حين زاد في البيت الحرام ووسعه سنة ٢٦ فابتاع من قوم وابى آخرون ، فثار ثائره وهدم عليهم ووضع الاثمان في بيت المال ، فصيحوا بعثمان أتعرف ماذا فعل ؟

أمر بهم الحبس وقال جملته المشهورة مخاطبا بها اولئك الثائرين

«أتدرون ما جرأكم علي ؟

ما جرأكم علي الا حلمي ، قد فعل هذا بكم عمر ، فلم تصيحوا به ! »

وفي هذه الجملة ما فيها من الالم اللاذع والحسرة القاتلة ، ولكن هل اقتدى بعمر في شدته بعد ذلك !

كلا بل عاد الى طبعه فاخرجهم حين كلمه فيهم بعض الناس

انكم في دار قلعه ، وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم ، بخير ما تقدرون عليه الخ وهي خطبة مملوءة زهدا وورعا

« صورته »

مربوع ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، حسن الوجه ، أسمر اللون ، رقيق البشرة بوجهه نُكتات من جدري ، حسن الشّعر كثيفه ، شعره يكسو ذراعيه ، عظيم اللحية يصفرها . أصلع ، أروح الرجلين ، عظيم الكراديس ، عظيم ما بين المنكبين

ولو أن عمر أو أبا بكر مكانه ، لما تهاونا في القصاص ولا نزلا بهم مايستحقون من نكال ، فجعلاهم عبرة للمعتبرين وأمثولة للثائرين !

* * *

توالت الثورات على « عثمان » رضي الله عنه وطمع فيه الناس فخلعه ؛ وتطاولوا عليه ، فلما لم يردعهم ؛ اجترأ عليه غيرهم

وتضافرت أسباب أخرى — سنجملها في العدد القادم — وتعاون معها قدر لا مفر منه ، فانتهت هذه وذاك بادلاكه ، وادت الى مصرعه الهائل : الذي تترك لزوجه « نائلة بنت الفرافصة روايته باسلوبها المؤثر ، اذ تقول : من كتابها الى معاوية .

(كيف صرع ؟)

واني اقص عليكم خبره ، لاني كنت مشاهدة أمره كله ، حتى قضى الله عليه ان اهل المدينة حصروه في داره يحرسونه ليلهم ونهارهم ، قياما على ابوابه بسلاحهم يمنعونه كل شيء قدروا عليه ، حتى منعوه الماء .

يحضرون له الاذى ، ويقولون له الافك ، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة ، وهكذا الى ان تقول :

ثم انه رُمي بالنبل والحجارة ، فقتل ممن كان في الدار ثلاثة نفر فأتوه يصرخون اليه ليأذن لهم في القتال فنهاهم عنه وأمرهم أن يردوا عليه بنبلهم ، فردوها اليهم فلم يزدهم ذلك على القتال الا جرأة ، وفي الامر ، إلا أغراء .

ثم احرقوا باب الدار ،

وهنا تقول :

ودخل عليه القوم يتقدمهم « محمد بن ابي بكر » فاخذوا بلحيته ودعوه باللقب . فقال : انا عبد الله وخليفته ، فضربوه على رأسه ثلاث ضربات ، وطعنوه في صدره ثلاث طعنات وضربوه على مقدم الجبين فوق الانف ضربة اسرعت في العظم فسقطت عليه وقد انخنوه ، وبه حياة — وهم يريدون قطع رأسه ، ليذهبوا به فأتتني بنت شيبة بن ربيعه ، فألقت نفسها معي عليه ، فتوطأنا وطئاً شديداً ، وعرينا من ثيابنا وحرمة امير المؤمنين أعظم ! فقتلوه رحمة الله عليه في بيته وعلى فراشه وقد ارسلت

اليكم بثوبه وعليه دمه ،

وانه والله لئن كان اثم من قتله ؟ لما سلم من خذله ! »

كيف مثلوا به !

قالوا :

ونبذ عثمان ـ رضي الله عنه ـ ثلاثة أيام لا يدفن ثم ان بعض الناس كلم عليا في دفنه وطلب اليه ان يأذن لاهله في ذلك ففعل ، وأذن لهم علي

قالوا .

فلما سمع بذلك تصدوا له في الطريق بالحجارة وخرج به ناس يسير به من اهله (١) وهم يريدون حائطا بالمدينة كانت اليهود تدفن فيه موتاهم يقال له (حش كوكب) فلما خرج به على الناس رجموا سريره ، وصمموا بطرحه .

وتقول آخرون

انه اخرج ولم يغسل ، وأرادوا ان يصلوا عليه في موضع الجنائز فابت الانصار واقبل عمير بن ضابيء ـ وعثمان موضوع على باب . فنزا عليه . فكسر ضلعا من اضلاعه وقال .

(سجنت ضابئا حتى مات في السجن !)

ولولا ان تدار كهم علي بن أبي طالب ونهى الناس عن التمثيل به لما علم الا الله الى أي حد كانوا يتمادون في التمثيل به وأطلق به حتى دفن في (حش كوكب) (٢)

---

(١) هم مروان بن الحكم وثلاثة من مواليه وابنته وزوجه قالوا .

فناحت ابنته ورفعت صوتها تندبه فنهالت الحجارة حتى كادت ترجمهم

(٢) فلما ظهر معاوية على الناس امر بهدم ذلك الحائط حتى افضى به الى البقيع فأمر الناس ان يدفنوا موتاهم حول قبره ، حتى اتصل ذلك بمقابر المسلمين !